أم هشام

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم هشام

قال لي ولدي: ومن التي بُشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم هشام، والدها: حارثة بن النعمان وأمها: أم خالد بنت خالد بن يعيش وكلا والديها من بني مالك بن النجار من أنصار المدينة حرسها الله، أما زوجها فهو: عمارة بن الحبحاب بن سعد.

قال: ومتى كان إسلامها يا أبي؟

قلت: أسلمت أم هشام في وقت مبكر فكانت من السابقين الأولين إلى الإسلام بعد وصول سفير رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ليعلم أهلها أحكام الدين الحنيف، ويقرأ فيهم القرآن، وأسلمت معها أمها وإخوتها: عبد الله وعبد الرحمٰن وسودة وعمرة.

فقد سمع حارثة بقدوم مصعب ونزوله ضيفاً على أسعد ابن زرارة فذهب يتقصّى ما يحمله ذلك الوافد المكي في جعبته، حتى إذا بدأت آيات القرآن تنساب من شفتَي مصعب اخترقت سمع حارثة ثم استقرت في قلبه، ومنحته الراحة والاطمئنان، وأعلن حارثة إسلامه أمام السفير، وانطلق إلى أهله مبشراً لهم بالخير الذي حل ببلدهم، وداعياً لاتِّباعه، فما باتوا إلا مسلمين.

وكالنبتة العطشى التي يأتيها الماء، تلقت أم هشام آيات القرآن فتفتحت نفسها، وانتعش فؤادها، وأصبحت في أحسن حالٍ، وفي خير منقلب.

قال: وماذا كان من أمر هذه الأسرة الطيبة أسرة حارثة بن النعمان بعد ذلك يا أبي؟

قلت: علم أهل المدينة أن رسول الله ﷺ سيأتيهم مهاجراً، بعد أن قابله وفد من الأنصار وبايعوه بيعة العقبة الثانية، واختاروا لهم اثني عشر نقيباً ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

وأخذوا ينتظرون ساعة لقائهم به بصبر نافذ، وهيأوا أنفسهم وأهليهم إلى ذلك اليوم، حتى إذا أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة، أعلم أصحابه أن يسبقوه ويتسللوا خفية بعيداً عن عيون قريش ورقبائها.

ثم خرج رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، يقصدان المدينة مهاجرين.

وانطلق البشير ينادي في طرقات المدينة: أن الموكب النبوي الشريف قد وصل إلى ظاهر المدينة، فتنادى أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً لاستقبال أعز الناس، وأحب الناس، وأكرم الناس، وكان حارثة بن النعمان رضي الله عنه في مقدمة المستقبلين، ومعه أسرته المؤمنة الطيبة.

ونزل رسول الله ﷺ ضيفاً على أبي أيوب الأنصاري بعد أن توقفت ناقته القصواء أمام داره، وسُرَّ أبو أيوب وزوجه أم أيوب بهذا الشرف الكبير الذي أحرزاه، فقد عمّتهم بركة ضيفهم العظيم

وامتلأت دارهم بعَبَق الآيات الكريمة التي كان يتلوها، ولم يكن في المدينة أهل بيت أسعد منهما في تلك اللحظات المباركة.

ولما أمر رسول الله ﷺ أصحابه ببناء مسجده الشريف انطلق أهل المدينة، وشارك المهاجرون والأنصار في تشييد أول مسجد للمسلمين وكان رسول الله ﷺ يشاركهم في عملهم ويشجعهم على إنجازه حتى يؤدوا الفريضة في رحابه الطاهرة، ويحضروا جلسات تلاوة القرآن ويتعلموا أحكام الدين.

ولما كمل بناء مسجد رسول الله ﷺ، أخذ الناس يؤمونه للصلاة خلف رسول الله ﷺ، وكانت أم هشام بنت حارثة بن النعمان مواظبة على الحضور إليه، فلنستمع إليها وهي تقول: لقد كان تنُّورنا وتنُّور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١]. إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

وأية فائدة ترجوها أم هشام أكبر من أن تنهل من معين النبوة لتروي ظمأها، وتحفظ آيات من كتاب الله، تتلقاها من أعذب فم ينطق بها؟ وهي تعلم أن تلاوتها تزيد الحسنات وتحط السيئات وترفع الدرجات.

ومما ساعد أم هشام على زيادة ثقافتها الدينية، وتنمية ثروتها الفقهية، أن بيتها كان قريباً من بيت رسول الله ﷺ، إنها تصلي خلفه في مواعيد الصلاة، وتزوره في بيته، بيت عائشة رضي الله عنها، وكان والدها حارثة وثيق العلاقة برسول الله ﷺ، ومن أصحابه المقربين، وكانت له عدة منازل مجاورة لمنازل رسول الله ﷺ، وقد بلغ من حب حارثة لرسول الله ﷺ، أنه

كلما سمع أن النبي ﷺ قد تزوج تحوَّل له حارثة عن أحد منازله ليكون سكناً لأم المؤمنين الجديدة، حتى قال ﷺ ذات يوم: «**لقد استحييت من حارثة، مما يتحول لنا عن منازله**»، وقد ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى [ج ٣ ص ٤٨٨].

قال ولدي: أرجو يا أبي أن تحدثني عن فضل أم هشام وفضل والدها حارثة بن النعمان، فإن بي شوقاً للاستزادة من أخبارهما؛ لأن الرحمة تنزل عند ذكر الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قلت: كانت أم هشام ابنة واحد من الذين منحوا جواز سفر إلى الجنة، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**دخلت الجنة، فسمعت قراءة، فقلت: مَن هذا؟ قيل: حارثة**»، فقال النبي ﷺ: «**كذاكم البرُّ**» فما أعظمها من بشرى، وما أجدر حارثة بن النعمان بها!

إن عدم بر الوالدين يا بني من الموبقات المهلكات التي تدخل النار، وتحرم من الجنة، وأما البار لوالديه فلن يدخل النار، والجنة له ولأمثاله في انتظار.

وهذه البشرى التي أبلغها رسول الله ﷺ لحارثة، استحقها ببره لأمه، وحرصه على طاعتها ومرضاتها.

وقد ورد في الحديث: «**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم**»، وقد أمر الله سبحانه وتعالى الأبناء بالإحسان إلى آبائهم لا سيما عند الكبر، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل

رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وعَدَّ رسول الله ﷺ عقوق الوالدين تالياً للإشراك بالله حين عدَّد الكبائر، فما أبعد العاقَّ عن رضوان الله وجنته، وما أقربه من ناره ونقمته! ويا فوز الأبرار بما وعدهم الله من النعيم!

وقد مَنَّ الله على حارثة بمأثرة لم يفز بمثلها عدد كبير من صحابة النبي ﷺ، وها هو ذا حارثة يحدثنا عنها ويقول:

رأيت جبريل من الدهر مرتين، يوم الصَّوْرَيْن ـ وهو موضع بالبقيع في المدينة ـ حين خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة مرَّ بنا في صورة دحية فأمر بلبس السلاح.

ويقول حارثة: ومرَّ بنا جبريل يوم موضع الجنائز حين رجعنا من حنين مررت وهو يكلم النبي ﷺ فلم أُسَلِّم، فقال جبريل: من هذا يا محمد؟

قال: «**حارثة بن النعمان**».

فقال جبريل: أما إنه من المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفّل الله بأرزاقهم في الجنة، ولو سلم لرددنا عليه.

وحين دعا رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم للخروج إلى لقاء المشركين في «بدر» كان حارثة من أوائل الملبّين.

كان الجهاد دليلاً على قوة إيمان المسلمين، وطاعة لله ولرسوله ﷺ، وإبعاداً لتهمة النفاق عن النفس، والوصول إلى إحدى الحسنيين: إمَّا دحر العدو وإعلاء كلمة الله وتحقيق النصر لهذا الدين الذي امتنّ الله به على المسلمين، وإما إدراك الشهادة، والموت في سبيل الله، والفوز بالجنة التي أعدّها للمتقين.

وأظهر حارثة يوم بدر كل ما لديهِ من شجاعة، وأبدى أعظم استبسال، وأنجز الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ما وعد، وأمده بجند من الملائكة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وسقط زعماء الشرك، ورؤوس الكفر صرعى على أرض بدر، وروَّى المسلمون أسيافهم من دماء أبي جهل وابني ربيعة شيبة وأخيه عتبة وابنه الوليد، وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط الذين آذوا رسول الله ﷺ أشد الأذى، وأنزلوا بأتباعه من المسلمين العذاب الأليم، فكانت نهايتهم في قعر بئر «بدر» كما أمر رسول الله ﷺ، فلما ألقوا في البئر وقف رسول الله ﷺ على فم البئر يخاطبهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

سمع أصحاب رسول الله ﷺ، رسولَ الله ﷺ، وهو يقول من جوف الليل: «**يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام** ـ فعدَّد مَن كان معهم في القليب: **هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً!**» قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جيَّفوا ـ أي: أصبحوا جيفاً ـ فقال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني**».

وهكذا كان لحارثة بن النعمان شرف حضور أعظم معركة خاضها المسلمون ضد أئمة الشرك، حيث باء المشركون فيها بالخسران المبين.

وتابع حارثة مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ، وكان لا يتخلف عن غزاة يخرج فيها.

فلما أراد رسول الله ﷺ زيارة البيت الحرام، وهو لا يريد القتال ساق أمامه سبعين بدنة لينحرها، ومعه سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة أنفار، حتى إذا علمت قريش بذلك أرسلت

رسولاً لها يستطلع جلية الأمر، وعاد الرسول ليخبرها أن المسلمين لا يريدون القتال، ولم يخرجهم إلا الرغبة في الزيارة والطواف حول البيت ثم العودة من حيث أتوا، فأبوا أن يسمحوا لهم بدخول مكة، فأرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ليخبر قريشاً أنهم لم يخرجوا لقتال، ولما وصل عثمان، وأبلغ أهلها رسالة رسول الله ﷺ، وأنه جاء لزيارة البيت وتعظيم حرمته، رد عليه أبو سفيان وبقية زعماء قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فما كان جواب عثمان إلا أن قال لهم: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، ثم أشيع نبأ قتل عثمان، ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ، قال: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**». ودعا الناس إلى البيعة، وكانت تلك البيعة بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وقف رسول الله ﷺ تحت شجرة سَمُرة، ونادى مناديه: البيعة البيعة، فأسرع الناس إليه ليبايعوه.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إنهم كانوا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، فبايعنا رسول الله ﷺ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، فبايعناه غير الجد بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره.

وكانت أم هشام إحدى اللواتي بايعن رسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفازت أم هشام برضاء ربها يوم بايعت رسوله ﷺ.

وقد أخبر إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه، أن النبي ﷺ دعا الناس للبيعة في أصل الشجرة، فبايعته في أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس قال: «**بايع يا سلمة**» قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس!

قال: وأيضاً، ورآني النبي ﷺ أعزل، فأعطاني حَجَفة أو درقة، قال: ثم إن رسول الله ﷺ بايع الناس، حتى إذا كان في آخرهم قال: «**ألا تبايع يا سلمة!**»

قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال: وأيضاً، قال: فبايعته الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «**فأين الدرقة والحجفة التي أعطيتك**»، قلت: لقيني عمي عامر أعزل فأعطيته إياها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «**إنك كالذي قال الأول: اللّهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي**».

قال: ألا تخبرني ببشارة رسول الله ﷺ لأم هشام بالجنة يا أبي؟

قلت: بلى يا بني! لقد كانت بشارة عمَّت أصحاب الشجرة جميعاً ولم تكن خاصة بأم هشام، وها هو ذا جابر بن عبد الله يحدثنا عن تلك البيعة فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل مَن بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلّا صاحب الجمل الأحمر**».

وأخرج الترمذي هذا الحديث بلفظ: «**ليدخلن الجنة مَن بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر**»، وصاحب الجمل الأحمر هو الجد بن قيس الأنصاري وكان منافقاً يطلب جمله.

وفي حديث آخر يرويه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**».

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكوه إلى رسول الله ﷺ ويقول: ليدخلن حاطبٌ النار، فقال له رسول الله ﷺ: «**كذبت لا يدخلها، شهد بدراً والحديبية**» فطوبى لأهل بدر وطوبى لأهل الحديبية، هذا التكريم الذي نالوه، وهذا الشرف الذي أعطوه.

ثم تبيّن أن عثمان رضي الله عنه لم يصب بسوء، وأن خبر قتله كان إشاعة، وقد أطلقتها قريش، وأرسلت رسولها سهيل بن عمرو ليفاوض رسول الله ﷺ، وعرضت عليه أن يعود في عامه هذا عن مكة، وأن بإمكانه أن يؤدي العمرة في العام المقبل، وتم توقيع صلح الحديبية، ولما اعترض عمر بن الخطاب رضي الله عنه على شروط الصلح قال له رسول الله ﷺ: «**أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره، ولن يضيعني**».

فكان عمر يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلّمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ألم تَرْوِ أم هشام شيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ؟

قلت: بلى يا بني، لم يكن اهتمام أم هشام منصباً على حفظ القرآن الكريم فحسب، وإنما كانت تحفظ ما تسمعه من حديث رسول الله ﷺ وترويه ويروي عنها.

وقد روى عنها يحيى بن عبد الله، ومحمد بن عبد

الرحمٰن بن أسعد بن زرارة، وحبيب بن عبد الرحمٰن بن يساف، كما كانت أختها عمرة تروي الحديث عنها، وليس هذا الأمر بغريب عن جارة تقية ورعة مؤمنة كانت تسكن بجوار خير معلم للخير، والهادي الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

لقد جعلت أم هشام رسول الله ﷺ قدوتها ففازت بخيرَي الدنيا والآخرة وبُلِّغت دار المتقين، رحمها الله ورحم أباها حارثة فقد صدقا ما عاهدا الله عليه وما بدّلوا تبديلاً.